«المدية حياة المشهد وذاكرة المكان»

(بحث أنثروبولوجي في سياق تعليمي)

محمد الخواجا

جاء عرض هذه الورقة في مؤتمر القطان التربوي الثالث الذي عقد في رام الله – كانون الأول –2009 كوصف موجز عن مشروع تشاركي قام به طلاب مدرسة المدية مع أهالي قريتهم، تحت عنوان «المدية حياة المشهد وذاكرة المكان»، وكبحث أنثروبولوجي في سياق تعليمي، وتم تنفيذ المشروع كتجربة مشتركة مع زميلي المرشد التربوي يوسف الخواجا.

فكرة المشروع

قام المشروع على أساس استحضار تاريخ القرية، وقد جمع الطلاب في تجربتهم وفي كتاباتهم بين الصورة والحدث التاريخي والمكان، كتبوا عن حكايات الناس، وروايات الجدات والأجداد عن مواسم قطف الزيتون والحصاد، وعن تفاصيل العرس والكتاتيب والقصص والألعاب الشعبية، كما تحدثوا عن المكان وما يمثله من مبانٍ ومواقع أثرية وتضاريس، عبر توثيقها بالصورة والمادة المكتوبة.

تقول الطالبة آلاء حسني: عندما بدأت أجمع المعلومات من جدي «أبو شفيق»، تعلمت أشياء كثيرة، تعرفت على أيام زمان، أيام رمضان والأعياد، تعرفت على تقاليد الموت، طقوس الزواج القديمة، الطب الشعبي، طرق مواجهة الحسد، أشياء جميلة لا يمكن أن أنساها.

بداية تبلور فكرة المشروع

جاء من خلال مشروع «مشاريع صغيرة في المدارس» الذي أطلقه مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، والذي جاء على أساس قيام مجموعة من المعلمين تم اختيارهم للمشروع بالتفكير في تجارب مختلفة يتم العمل فيها مع طلاب مدارسهم. في اللقاء الأول، تم التعريف بالمشروع والفكرة، واتفقنا على أن تكون الفترة بين اللقاءين الأول والثاني فترة تحضير وتفكير بالمشروع والتجربة التي نريد تطبيقها مع الطلاب، وهنا بدأت الحديث مع زميلي يوسف للعمل في مشروع موحد كوننا نعمل معاً في مدرسة المدية.

لم تكن لدينا فكرة جاهزة، وإنما اتفقنا على أن تكون الفكرة وليدة الطلاب أنفسهم، في اليوم التالي عقدنا اجتماعاً في قاعة المدرسة مع طلاب الصفين الثامن والتاسع الأساسي، وتناقشنا حول الفكرة والمواضيع التي يمكن الحديث عنها، واقترح الطلبة عدداً من المواضيع.

المدرسة

من خلال تجربتي كمعلم منذ ثماني سنوات في هذه المدرسة، يمكنني القول إن المدرسة عبارة عن مجموعة من الغرف الصفية لا أكثر ولا أقل، تعاني من تهميش من قبل الأهالي ومؤسسات المجتمع المدني والمؤسسات الحكومية (عدم وجود أسوار، ملاعب، مقصف، حديقة، ومختبرات».

ولعل أفضل وصف لمدرسة المدية، ما كتبه زميلي يوسف عن المدرسة أثناء كتابته عن تجربة المشروع:
«مدرسة أساسية صغيرة، لا تصلح أن تحمل هذا الاسم، مستطيلة الشكل وتشبه الصندوق، لا بل هي تشبه القبر، فيها شارع يفضي إلى الشارع الرئيسي، تختصر الحيوانات طريقها من وسط المدرسة، فلا جدار يحمي قدسية المدرسة، ولا ساحة تتسع لرف من العصافير، ولا مقاعد تريح الأطفال من مسافة الطريق، ولا مظلة تحميهم من حر الطريق ومطر الشتاء».[1]

القرية تتعرض لاستهداف الإنسان والمكان

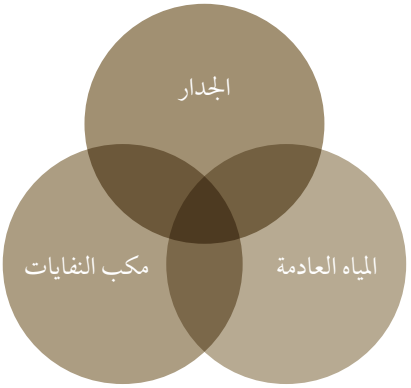

تأثير الجدار

القرية محاطة بجدار إسرائيلي من الجهات الغربية والشرقية والجنوبية، والجدار له تأثيرات مدمرة على أهالي القرية إذا ما تمت قراءته في ضوء ومن خلال طبيعة الأعمال التي يقوم بها أهالي القرية، حيث أن معظم الأعمال التي يقومون بها مرتبطة بشكل أو بآخر بالأرض:

- الزراعة: حيث أن جزءاً من الأهالي كان يعتمد على الزراعة، ومع بناء الجدار جزء كبير منهم فقد مصدر رزقه الوحيد.
- تربية الأغنام: حيث أن عدداً كبيراً من الأهالي كان يمارس حرفة الرعي، ومع بناء الجدار تم انحسار الأراضي الزراعية.
- العمل المأجور: عدد كبير من الأهالي كان يعتمد على العمل في الأراضي المحتلة العام1948، ومع بناء الجدار فقد جزء كبير منهم عمله، بسبب عدم حصوله على تصاريح عمل تمكنه من اجتياز الحواجز ونقاط التفتيش الإسرائيلية إلى أماكن عملهم.
- الجدار شكل عائقاً أمام التوسع العمراني الأفقي عند أهل القرية، وهناك عدد كبير منهم لديهم إخطارات بهدم منازلهم.

الجهة الوحيدة التي لا يوجد فيها جدار هي الجهة الشمالية «أو إذا صح التعبير الجهة الشمالية الشرقية» باتجاه نعلين. ولكن في الواقع، فإن القرية من هذه الجهة تتعرض لمخاطر قد تكون أكبر من مخاطر الجدار، وذلك لسببين:

أولاً. في هذه الجهة، يمر وادي قريقع، وهو الوادي الوحيد في القرية، وقد استخدمته مستوطنة «حاشمونئيم» الجاثمة على أراضي القرية كمكب للمياه العادمة.

ثانياً وجود مكب للنفايات الصلبة ومخلفات المصانع الإسرائيلية من هذه الجهة (في منطقة تقع بين نعلين والمدية)، وهذه النفايات كانت تكب في مناطق داخل الأراضي المحتلة العام 1948. ولكن نتيجة ثورة اليهود عليها بعد اكتشاف أنها تحتوي على موادّ مسرطنة، تم نقلها إلى هذه المنطقة مقابل مبلغ بخس يحصل عليه صاحب الأرض.

اتفقنا على العمل في مشروع وتجربة تتناول المدية كمشهد ثقافي جغرافي، والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا المدية؟

تقول إحدى الطالبات: أنا حاسة أن القرية غير موجودة وتعبانه، وعند ما اطلعت على رام الله سألتني إحدى الطالبات من وين أنت؟ قلت من المدية: قالت: من وين هذه المدية؟ قلت لها: «أحسن ومليح إنك ما بتعريفيها». وتضيف: عند ما جاء المشروع كنت من أوائل الطالبات اللواتي عملن في المشروع لأنه يتحدث عن قريتنا.

تعريف الأهالي بدور المدرسة، وأن المدرسة لها دور مهم في تطوير أداء الطلاب وإنماء قدراتهم، وبناء جيل لديه القدرة على التفاعل مع المجتمع المحلي.

مراحل التجربة

في البداية تحدثنا عن الجانب النظري للفكرة، أما على الصعيد العملي، فقد تم تقسيم الطلبة (بشكل اختياري) كمجموعات طلابية بناء على هذه المواضيع:

الحكايات الشعبية	البناء
الألعاب الشعبية	الطب الشعبي
الفلكلور	المياه
جغرافيا القرية	الأنشطة الاقتصادية
المعتقدات الخرافية	التعليم في القرية
النباتات الطبيعية	عائلات القرية
مجموعة التصوير	

بعد الانتهاء من رسم الهيكل الخارجي للمشروع، وبناء المجموعات الطلابية، بدأت هذه المجموعات العمل على جمع المعلومات في الموضوعات التي تم اختيارها.

آلية العمل في المشروع

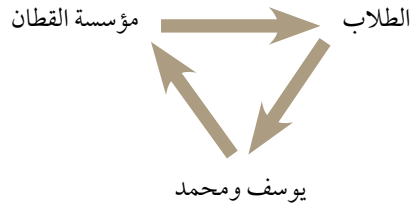

دور الطلاب

وقد عمل أفراد المجموعة بشكل متعاون، وتقاسموا الأدوار، فالبعض تولى مهمة البحث عن كبار السن في القرية «الرواة»، الذين يمكن الاستفادة منهم كل حسب موضوعه، وعملوا قوائم بأسماء هؤلاء الناس، والبعض تولى مهمة الزيارات وإجراء المقابلات الشخصية، والبعض الآخر مهمة الكتابة وتفريغ المعلومات، ومع مرور وقت المشروع، أصبح هناك تداخل وانصهار في حدود المجموعات.

اهتم الطلبة بالفكرة على الرغم من الصعوبات التي واجهوها أثناء عملية جمع المواد. تقول إحدى الطالبات: كلما كنت أذهب إلى جدي كان يطردني من بيته ويسب عليّ وعلى كل واحد يعمل في المشروع، وكان يقول هالاستاذ إللي عندكم فاضي باله، متحير فيه، كل شيء بدو إياه الواحد مش فاضي يحك رأسه.

هذا فيما يتعلق بدور الطلاب الذين شاركوا في «مشروع المدية حياة المشهد وذاكرة المكان». أما فيما يتعلق بدورنا، فقد قمنا على تدريب الطلبة على آلية التوثيق والتصوير والمقابلات وتنظيم آلية العمل في المواضيع المختلفة، ولكن الموضوع لم يكن سهلاً لأن الفكرة لم تكن جاهزة من أجل أخذها وتطبيقها مع الطلاب، وما كان لدينا خبرة سابقة في مشاريع كهذه.

من هنا جاءت الحاجة إلى الاطلاع على أبحاث، ومعرفة كيف تكتب الناس ذاكرة الأمكنة، كما كنا نعيد قراءة المواد التي يجمعها الطلبة مرة ومرتين، ونرى أن بعض المواضيع يمكن أن تعطي قيمة أكثر للبحث إذا كانت تحمل جداول أو قوائم أو صوراً؛ مثلاً:

عندما عمل الطلاب جداول إحصائية للأراضي المتبقية لأهل القرية، وجدنا ضرورة أن نقوم بإحصاء الأراضي التي سيطر عليها الاحتلال. عندما قام الطلاب بتصوير الأولياء وجدنا من الضروري أن يجمع الطلبة روايات الناس: ماذا كانوا يقولون عندما يذهبون إلى الأولياء؟

في هذه الورقة قمنا باختيار بعض المواضيع التي جمعها الطلبة في مشروعهم، وسوف نعرض عليكم آلية العمل في هذه المواضيع، وكيف استطاع الطلبة الربط بين الرواية والوثيقة والصورة.

موضوع تسمية القرية

بحث الطلاب عن معنى المدية في الكتب التاريخية، وسألوا الأجداد، وبحثوا أيضا في الإنترنت، وفي النهاية **وجدوا أن قرية المدية من العهد الروماني وتعني معاصر الخمر.**

قام الطلاب بتصوير معاصر الخمر الموجودة في القرية «غرب القرية»، وما زالت آثار هذه المعاصر منحوتة في الصخر إلى يومنا هذا.

وجد الطلبة في أثناء البحث عن الوثائق كتاباً للحاج احمود وهو مختار المدية، ويعود لبدايات القرن العشرين، وهذا كتاب قيم. ويوجد في الكتاب ورقة تبين أن أهالي القرية كانوا ينتجون كميات كبيرة من العنب، ويتم بيعها خارج حدود القرية (المدينة أو القرى المجاورة)، ولكن في الوقت الحالي يقوم معظم أهالي القرية بابتياع العنب من السوق.

الطب الشعبي

كتب الطلبة عن عدد كبير من المشاكل التي واجهها السكان، وكتبوا أيضاً عن الطرق التقليدية الشعبية في مواجهتها: المرأة التي يتأخر حملها، الو حام، الإجهاض، المولود السباق «أي أنه يولد قبل إتمام تسعة شهور»، السخونة، الحصبة، الحسد.

الوحام

يقول أبو شفيق لحفيدته نور: «حدثت معي قصة، لما ستك كانت حامل بعمك شفيق، حبلت ستك وكانت الدنيا شتاء، وأجا على بالها دراق، وقلتلها ما تحك بطنها عشان ما يطلع بوجه الولد قطعة دراق. صرت أنا ألف على البيوت وأدور لستك على دراق بس ما لقيت، وتذكرت إننا مخزنين دراق، وأعطيتها توكل، قالت: مش جاي على بالي. وقالت جاي على بالي ألف في المدية. قلتلها بركبك على الحمار وبلف فيكي المدية. وفي اليوم التالي ركبتها على الحمار ولففتها البلد وبعدين قلتلها، شو ابتختبريني إني بحبك، قالت: لأ. وروحنا على الدار، وقبل ما تولد كانت حاملة على راسها جرة كبيرة، وماشية فيها بالدار. أنا شفت هالشوفة وطار عقلي، لأنها إذا بتحمل اشي تقيل ابنا بطلع قصير. قلتلها ما تساوي اشي، بس ما ردت علي وعندت واشتغلت، وبالفعل طلع الولد قصير ولحد اليوم بعزر عليها.

الأراضي في القرية

أولاً. تحدثوا عن الأسماء التي حملتها قطع أراضي القرية: جسر، حبلة، ميشة، وعرة، خلة، كروم، مناطير، رأس، كف، مكاثي، نجمة، شعب، مرج، تعميرة، عريك، عقبة، بياضة، مارس، جورة، خوانيق، باطن، حقل، بركة، الرهنية، الرجم.

ثانياً. قام الطلبة بعمل جداول لأراضي القرية، على أساس اسم القطعة: اسم صاحبها، شكلها، مساحتها. وكذلك قسموها إلى الأراضي الباقية لأهل القرية، والأراضي التي سيطر عليها اليهود.

ثالثاً. حصل الطلبة على وثائق تبين الضغط الذي مارسه الاحتلال على أهالي القرية، وعلى أراضيهم حتى بعد العام 1967.

رسالة من عمير كوهن، مسؤول في وزارة الزراعة الإسرائيلية إلى المدعو يوسف مصطفى يهدده بإزالة الأشجار التي زرعها في أرضه، على اعتبار أن هذه الأرض لدولة إسرائيل، وكانت الرسالة في العام 1985.

رد من أهالي قرية المدية على رسالة عمير كوهن، أكدوا فيها أن الميشة هي أرض للسيد يوسف مصطفى، وأنها تقع ضمن حدود قرية المدية، والزيتون المزروع فيها خير شاهد على ذلك.

رابعاً. أحداث العام 1986: «قامت جرافات الاحتلال بقلع أشجار الزيتون في القرية»، وإليكم الصور والوثائق، التي تبين الاعتداء الإسرائيلي على أراضي قرية المدية وردة فعل السكان.

نتائج المشروع (الطلاب، المعلم)

- **بعد سنة من العمل المتواصل في المشروع، استطعنا أن ننجز كتاباً يحمل تاريخ المكان والإنسان في قرية المدية**، كتبت فيه قصص الناس وحكاياتهم، والتفاصيل الصغيرة التي شكلت ملامح هؤلاء الناس، نتحدث عن المكان وما يمثله من مبانٍ ومواقع أثرية وتضاريس، وتوثيقها بالصورة والمادة المكتوبة، لنرسّم من خلالها الامتداد التاريخي للناس والمكان في هذه القرية.

تقول إحدى الطالبات: تعرفت من خلال المشروع على أشياء كثيرة عن أجدادنا، لا يعرف الناس في قريتي قديماً التلفزيون، والكمبيوتر، كانت حياتهم في الأرض، يتعلمون في المسجد، ويطبخون على النار، يسهرون على السراج، يتنقلون من مكان إلى مكان عن طريق الدواب، كانت حياتهم صعبة جداً ولكنها أحلى من أيام اليوم.

- **استخدم الطلاب المواد المنتجة في أنشطة تعليمية مختلفة**، عملت على إثراء المناهج التعليمية المدرسية، مثلوا مواسم الحصاد والكتاتيب في حصص الاجتماعيات، ورسموا مواسم قطف الزيتون، واستخدموا الرسم البياني والتمثيل النسبي في تعريف عدد السكان، والمساحة في حصص الرياضيات، كما قام عمل الطلاب على إحياء الألعاب الشعبية في المدرسة.

- **استطاعت التجربة أن تكسر حاجز الصمت والخوف عند الطلاب، وذلك عند المقابلات أو عند تطبيق المادة المنتجة.**
تقول إحدى الطالبات: «عندما كنت أذهب مع أصدقائي، كنت أحكي لزميلاتي أنتن اسألن وأنا بكتب، لأني بقيت أخجل، ولكن مع مرور الأيام وتطور التجربة، صرت أقول لهن: أنتن اكتبن وأنا بدي أسال.

- **ساعد المشروع الطلاب على تطوير قدراتهم في مجال الكتابة والتعبير، وأعطاهم القدرة على إدارة الوقت، كما ساعد على تطوير علاقاتهم بالمعلمين والمجتمع المحلي.**
تقول إحدى الطالبات: أصبحت الآن أعرف ما أريد، أعود من المدرسة أغير ملابسي، ارتاح وأحضر واجباتي المدرسية، ثم أذهب إلى جدتي أسالها عن أيام زمان.

أثر التجربة في تغيير أدائي كمعلم

كنت قبل تجربة المشروع أمارس دور المعلم التقليدي، حصصي تتميز بالتسلط وقلة الإنتاجية والتلقين وتهميش دور الطالب وعدم إعطائه فرصة في النقاش. وأعتبر أن دور الطالب داخل غرفة الصف يقوم على أساس الطاعة والتقديس والصمت. كنت أبذل جهداً كبيراً داخل غرفة الصف، أبدأ الحديث مع بداية الحصة، وانتهي مع قرع الجرس، ولكن المفاجأة أن النتائج لم تأت يوماً بقدر الجهد المبذول داخل الحصة، ومن ثم يبدأ برنامج الشتائم وتأنيب الطلبة على اعتبار أنهم سبب المشكلة. ولكن إثناء عملي في هذه التجربة، تعرفت على دوري بشكل أفضل، وأن الطريقة التقليدية تولد مللاً عند الطلبة، كما أن أسلوب المعلم القائم على أساس التسلط والقهر وتهميش دور الطالب قد يولد عند الطالب مشاعر الكره اتجاه المعلم، وبالتالي عدم رغبة في التعليم. تعلمت من التجربة أن الطلاب مجموعة مختلفة من حيث القدرات والمهارات، وأن المعلم بحاجة إلى البحث وتصميم مواد وآليات تعمل على جذب انتباه الطلبة وتنمية مهاراتهم. يجب أن يكون المتعلم مشاركاً فيما يتعلمه، وذلك من خلال إشراكه في الحوار والمناقشة، أن يكون الطالب منتجاً للمعرفة وليس متلقياً لها فحسب.

محمد الخواجا
مركز مصادر المعلمين «نعلين»

الهامش

[1] رؤى تربوية- عدد28، ص: 8-11.